لو ذات سوارٍ لطمتني

قد طالعت في عدد ٤٠١ من البشير المؤرّخ في ١٧ ايار ردًّا على رأي علماء المسلمين بشان النفس الذي اوردته في الانسان (انظر المقتطف المجلد ٣ صفحة ٣٠٥) لم يتوقف محررهُ على حدود الآداب وكان الاولى بهِ ان يتعلم لغتهُ ليضبط قلمهُ من الغلط قبل ان يتعرض لما يسمو على طورهِ من مباحث العلم والفلسفة. واذ كنت ارى انهُ لا يجمل بي مباراة مثلهِ حملاً على الآداب عزمت على ترك الرد عليهِ. وكفى برهانًا على تعمقهِ في العلم تشبيهُ النفس بالشمس من حيثية عدم الحلول وقولهُ «الانسان يعرف جواهر الكائنات لا بذاتها بل بما يبدو عنها من الافعال» فلم يحسن تادية المعنى المراد. وبيان انهُ لا يعرف كيف يتوصل الانسان الى ادراك حقائق الاشياء واخال ان ذلك لا يخفى على صغار الطلبة. والاغرب من ذلك قولهُ «لنا في جوهر النفس اوفر معرفة ما في جواهر الاجسام» فلا يخفى ما في قولهِ هذا من الامر المنكر لانهُ فضلاً عن ركاكة عبارتهِ يتضح منهُ قلة علمهِ ومطالعتهِ اذ ان معرفة حقيقة جوهر النفس قد اعيت الفلاسفة قديمًا وحديثًا. واعظم دليل على تعمقهِ باللاهوت وصفهُ النفس البشرية بما توصف بهِ النفس الحيوانية ايضًا كالادراك والرغبة والتصور والحكم بدون ان يبين الحد الفاصل بينها وغير ذلك كثير مما يطول شرحهُ فلله درهُ ودرُّ اساتيذهِ الذين لم يبالوا باصلاح خطائهِ. على انني اكِلُ تمويهاتهِ الى حكم ذوي العلم والادب الخالين من روح الميل والتعصب. وانبههُ الى ان مقالتي في الانسان لا تعلق لها بالمباحث الدينية. فلا يجعلنَّ حجر عثرة في سبيل العلم. ولعلهُ لم يدرك معانيها فذهب الى ما لا طائل تحتهُ. فهي بهذه المثابة اشبه شيء بقصيدة المتنبي التي قال فيها

بدي الغباوة من انشادها ضرر ... كما تضرُّ رياح الورد بالجُعَلِ

او كأني بهِ الخليل وابنهُ اذ كان يقطع اجزاء العروض فظنهُ ابنهُ قد جنَّ واشاع الخبر فقال الخليل

لو كنتَ تعلمُ ما اقول عذرتني ... او كنتُ اجهل ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعرفتُ انك جاهلٌ فعذرتكا

بشاره زلزل

الحق اولى ان يقال

لجناب صنيعي المقتطف الفاضلين

خير الكلام ما قلَّ وجلَّ ولا سيما في هذا المقام حيث الحق اوضح من الصبح لذي عينين فارجو كما ادراج هذه النبذة الوجيزة في مقتطفكما اليانع المفيد ولكما الفضل

المهد على رؤوس الملا ان تعرُّض البشير للمقتطف افتراء واضح وما نسبة اليهِ ليس الاَّ تهمة ظاهرة وما تكلمهُ في حقهِ من الكلام الطويل الممل يمسُّ حاسة ذوي الانسانية ويحمل كل وطني يحب تقدم وطنهِ ونجاحهُ على القيام

عن هذه الجريدة الوطنية التي اشتهرت فوائدها اشتهار نار على علم ولمعت في سماء سورية شموس افضالها السامية تبعث انوار العلوم الى كل ذي باصرة باصرة . كيف لا وان المقتطف منذ نشأ الى هذه الساعة لم يجمل دابة غير ذكر الحقائق العلمية والفوائد الصناعية باوضح عبارة واكمل بيان . وهو يجمع البنا جديد الاكتشاف والاختراع في العلم والصناعة من دان وقاص ويبسطه امامنا على بساط الحب والاخلاص ناهيك عما يعالي من المشقات في الاجابة عما يسأله عنه ابناء الوطن من كل فن ومطلب مما يغيبهم عن اتعاب لا تقدّر . ولا عجب فان منشئيه الفاضلين يعلمان ما عليهما لوطنهما ويسعيان في انمائه ولو تكبّدت بها جرائد الاجانب لغايات باطنة . وما يشهد لشهادتي ويؤيد فضل منشئي المقتطف الاكرمين ملازمتهما منهجها في تقديم الفوائد العلمية والصناعية والادبية وما يأول الى تحسين هيئتنا الاجتماعية وعدم تعرضهما لما من شانه القاء القلاقل والانشقاقات بين ابناء الوطن خلافاً لما يزعمه البشير من انهما يتعرضان للمسائل الدينية التي تمس كنيستنا الكاثوليكية فان ذلك منه محض وهم ولو كان لمدعاه ادنى ثبوت لكنتُ اول من يتصدّى لها محاماةً عن مذهبي وحقوق كنيستي الكاثوليكية ولكنّ عين العدل والانصاف لا ترى في المقتطف اثراً مما يتهمه به البشير وهاك البيان : ان من جملة اعتراضات البشير على المقتطف عرّافة عين دور التي ذكرها المقتطف بطريق العرض حتى باب علي فحملها البشير وقلبها وركب انبيته وقطرها فاستخلص منها ان المقتطف انكر كل السحر ونادى بعدم ظهور صموئيل النبي لعرافة عين دور خلافاً للوحي الخ . على انه لدى التامل لا يُرى في كلام المقتطف شيء من ذلك او مما يدل عليه بوجه من الوجوه . وكنت اود لولا ضيق المقام ان اسرد كلام المقتطف حرفاً حرفاً ولكني اكتفي بمضمون ما قاله (ومن شاء فليراجع ما قاله المقتطف صفحة ٢٢٠ من السنة الثانية) وهو ان التكلم بالبطن (الفنتريلكوزم) يقوم بشرائع طبيعية ولا يبعد ان الاولين لم يكشفوه لعدم كشفهم اياها . وان الكاهن دولاشابل وغيره كانوا يعتقدون بان العرافين والكهان والتابعين والمسعودين كانوا يتكلمون من بطنهم فيوهمون الاولين ان الآلهة تكلمهم . وان الكاهن المذكور حاول ان يبرهن كون عرافة عين دور لم تخرج صموئيل الا اوهمت شاول بخروجه مكيفة صوتها تكييف المتكلمين من بطونهم . ثم نبّه المقتطف على هذا الاخير بانه فاسد بقوله « وهذا مرفوض عند الجمهور لمخالفته سائر ما نصّ هناك » (اي في التوراة) اه

قال البشير ان المقتطف قد تعرّض بكلامه هذا لتعاليم كنيستنا فلزم علينا ان نحامي عنها بهذه الاعتراضات الثلثة وهي : الاعتراض الاول ان التكلم من البطن لا يلزم لمعرفته شرائع طبيعية . فردّاً على ذلك اقول اولاً ماذا يهم كنيستنا اذا اقتضى للتكلم من البطن شرائع طبيعية او لم يقتض . وماذا يمس اعتقادنا اذا كان معروفاً عند الاولين او لم يكن . ليس الحق هو ان البشير يفتري على المقتطف افتراء . واقول ثانياً لا يسعني الا العجب من معارف صاحب البشير وبرهانه قال في كلامه ما خلاصته انه ليس في التكلم من البطن شيء من الشرائع الطبيعية بدليل ان الذين يعرفون الشرائع الطبيعية لا يقدرون عليه . فليت شعري هل تقدر على اجراء كل ما تعلمه من الشرائع الطبيعية وهل يعترض مثل هذا الاعتراض من يفهم ما هو معنى الشرائع الطبيعية . ومن ينكر ما لا ينكر ان الصوت من الدخل الاكبر في التكلم من البطن وكذا ما للسمع كما يعلمه كل من درس السمعيات أو لم يجمع علماء هذا العصر على عمل عضلات الحنجرة الميكانيكي واعصابها الفيسيولوجي وتحكيم اللسان على وجه مخصوص لاحداث ذلك كما يتبين من المباحث الفيسيولوجية . هذا وان من يعلم شيئاً من اقوال القدماء في الصدى (الصوت المنعكس) وخرافات عامتهم يتعجب غاية العجب من معارف صاحب البشير

الاعتراض الثاني . ان المقتطف ينكر السحر على الاطلاق ولا يقرّ بشيء فوق الطبيعة . وردّاً على هذا اقول انه كان الاولى بالبشير ان يحسن مطالعة المقتطف قبل ان يستخلص من اقواله امراً كهذا ولو راجع ما كتبه المقتطف عن السحر صفحة ٢٨ من السنة الثانية لكفى نفسه مؤونة التعب والكتابة اشهراً على غير طائل . قال المقتطف هناك ما عبارته : « اما انا فلم نرَ ولم نسمع ان للبشر علاقة بما هو خارج الطبيعة الا بامر او بسماح منه تعالى وحده لا غير » اه

فهذا كاف لدحض كل ما كتبهُ البشير ضدهُ من اولهِ الى آخرهِ . فمن من اهل الانصاف ينكر افتراء البشير على المقتطف ولا يثبت شهادتي

الاعتراض الثالث . ان عرافة عين دور كانت عرافة حقيقية . اقول ان البشير ادّعى بان المقتطف لم يدحض قول دولاشابل دحضاً كافياً ثم اتهمهُ بانهُ يذهب مذهب دولاشابل ولكن قول المقتطف الواضح الصريح يبطل دعواهُ وتهمتهُ كل الابطال وبناء عليهِ تكون دعوى البشير في غير محلها اذ ليس لكنيستنا المقدسة دخل في هذه المسئلة على الاطلاق وحاشا لها ان تقف عثرةً في سبيل العلم الصحيح كما وقف البشير هذه المرة . ومما لا يليق تركهُ هنا الى ان ارَ جريدة تجنّب الاختلافات المذهبية كالمقتطف فان كل من يطالع شيئاً عن التكلم من البطن يرى هناك فصصاً حاجة تتعرض كل التعرض للامور المذهبية تركها المقتطف واختار منها ما لا دخل للمذهب فيهِ

هذا وقد ظهر في عدد ٤٠١ من البشير اعتراض على جناب الدكتور بشارة افندي زلزل مما قالهُ نقلاً عن علماء المسلمين من ان النفس وكيفيتها وكيفية حلولها في البدن وامتزاجها بهِ واتصال الحياة بها لا يعلمهُ الاَّ الله الخ . (انظر المقتطف صفحة ٣٠٥ من السنة الثانية) قال المعترض : ان من له ادنى المام بعلم الفلسفة يعرف ما في النفس ويعلم انها حالة في الجسد اه. اما كونها حالة في الجسد فصادق عليهِ جناب الدكتور المشار اليهِ والظاهر انهُ خفي على حضرة المعترض ان البدن يراد بهِ ما سوى الراس وهو المقصود هنا لا غيرهُ كما يستدل عليهِ لغةً وكما تدل القرينة

ثم اخذ يبرهن على صحة اعتراضهِ ببراهين اجلها اثنان نذكر ملخصها هنا مع بيان علم صاحبها فالبرهان الاول فلسفي وهو قولهُ من المعلوم ان الانسان يعرف جواهر الكائنات لا بذاتها بل بما يبدو عنها من الافعال ولما كانت افعال النفس ظاهرة ظهوراً اجلى من افعال الاجسام كان لنا في جوهر النفس اوفر معرفة مما في جواهر الاجسام اه. فانعم بتلك المقدمة وبهذه النتيجة فانها كلتاها فاسدتان ولا نعلم ايهما افسد من الاخرى لانا لا نعلم جوهر الاجسام ولا جوهر النفس كما لا يخفى على من يطالع اول حكم من الفلسفة العقلية حيث يرى اتفاق جمهور الفلاسفة بالاجماع (ما خلا الميوليين) على ان ماهية جواهر الاجسام لا تدرك من اعراضها ولا ماهية جوهر النفس من افعالها وانما يدرك وجود جواهرها من اعراضها وافعالها . ولم يدّع احد بمعرفة جوهر النفس الاَّ الذين انكروا انها جوهر وقالوا انها هيولية فان ادّعى المعترض دعواهم لزم ان يكون منهم والحق ان النفس امرٌ من الله لا يعلمها الاَّ هو

والبرهان الثاني طبيعيٌّ ادّعى بهِ حضرة المعترض انهُ يعرف كيفية اتصال النفس بالجسد بقولهِ (والنفس) متحدة بهِ (اي بالجسد) اتحاداً طبيعياً جوهرياً وهذا بيانهُ : بهذا يعرف مثل وجود هذا الاتحاد متى اتحد جوهر بآخر فنشأ عن اتحادهما جوهرٌ واحد كامل وطبيعة واحدة متصفة بخواص وقوى وافعال لم تكن في كلٍّ من المركبين على حدتهِ . فتعمل وتُعمَل بها وتعزى اليها الافعال الصادرة عن المركبين . اه . اقول ان في برهانهِ هذا تعسفاً فظيعاً وضلالاً شنيعاً اذ جعل النفس بمثابة الهيولى اولاً وانزل نفسهُ منزلة الميوليين (الذين لا يعتقدون ان النفس جوهر) ثانياً . فان الاتحاد الطبيعي الذي اشار اليهِ لا يتم الاَّ بالفعل الحيوي او بالفعل الكيمي كما هو مقرر بلا مراء . اما الفعل الحيوي فكيفيتهُ مجهولة تماماً حتى ان البعض ينكرونهُ لجهلهم كيفيتهُ فيكون الاستناد اليهِ في هذه المسئلة عبثاً . واما الفعل الكيمي الذي بهِ تتحد مادة باخرى فلا دليل على انهُ يغير جواهر الاجسام وانما المعروف انهُ يغير اعراضها ولا يلزم من تغير العرض تغير الجوهر . بل لو صحّ هذا الزعم وتغيّر الجوهر بتغير العرض فلا تكون قد عرفنا شيئاً عن كيفية اتصال اعراض الاجسام بجواهرها وبقي الامر خفياً علينا وعلى فيلسوف البشير كما كان . بل لو عرفنا علاقة جواهر الاجسام باعراضها فكيف يجوز لنا ان نحكم بان علاقة النفس بالجسد في كعلاقة جوهر الجسم بالعرض لان من ادراننا ان جوهر النفس مثل جوهر الجسم وما يصدق على هذا يصدق على ذاك . فلم يزد حضرة المعترض الامر الاَّ خفاء وغموضاً ولكني اخشى ان يكون قد تورّط في اكثر من ذلك لانهُ اذا كانت النفس متحدة بالجسد اتحاداً طبيعياً بمعنى ما بيّن فالاولى ان تكون مادةً لا جوهراً تفعل بها الكهربائية والحرارة وتتحد بالاجسام بما بينها وبينها

من الالفة كما في شروط الفعل الكيمي . وهذا ضلال لا يقول به الاَّ الذين ينكرون جوهر النفس ويقولون انها الدماغ. أَلم يكن الاجدر بفيلسوف البشير ان يعترف بقصوره و يقرّ بجهله في مسئلة اقرّ اكبر فلاسفة الارض بجهلهم اياها أَولم يكن الاخلق به ان لا يتعرّض لشهم فاضل ساع في نشر المعارف ولا ينسب اليه الكفر لانهُ نقل بعض الحقائق عن علماء المسلمين . والخلاصة ان من يطالع اعتراض المعترض يراهُ يخبط فيهِ خبط عشواء لا يعلم علاقة مقدماتهِ بنتائجهِ وقد عثر في اكثر جمله اي عثار

هذا ولعدم رغبتي في اطالة الكلام لم اتعرّض لمن اعترض في مسئلة الشمس والنور وادّعى المعرفة وهو عنها بعيد فبطل كلامهِ اوضح من ان يبيّن واظن ان ما تقدّم كافٍ لدحض كل ما قالهُ البشير بحق المقتطف وما نسبهُ الى منشئيهِ الاجلين افتراء وما قذف بهِ الشهم الفاضل الدكتور بشارة زلزل زورًا فذلك مما لا الفينه رين سموعناصر اخلاقهم الحميدة . والي الله يشهد لست ممن يرغب في التنديد وتشقّ عليَّ ان اذكر ما ذكرت ولكني مهما قدح البشير وعدل العدال عالم على كل حال ان الحق اولى ان يقال

ظاهر
الزعني

[المقتطف] لما كان اكثر قراء جريدتنا لا يعرفون شيئًا عن البشير ولا يعرفون منشئيهِ فربما خفي عليهم سبب النبذة المتقدمة من قلم العالم البارع ظاهر افندي الزعني وايضاحًا لذلك نخبرهم ان البشير هذا غرّطة ينشرها حضرات الآباء اليسوعيين في بيروت جل مواضيعها المسائل المذهبيَّة ما يتعلق بالدين . وقد تصدّت هذه الغرّطة الاجنبية للمقتطف دون كل الجرائد الوطنية التي نشطتهُ وتكرّمت بالثناء عليهِ مرارًا فجاءت بدلاً من التنشيط والحث على خدمة الوطن بالتنديد بكتاباتنا والادعاء بانها مخالفة للدين القويم ونسبت الينا من افضالها الكفر تارةً والجهل والحماقة طورًا وغير ذلك مما لا ينتظر ممَّن هم في مركز اصحابها . اما نحن فلما كان موضوعنا غير موضوعها وكانت غايتنا خدمة وطننا لا التفرّغ لمجاوبة امثالهم من الاجانب ولا سيما في مواضيع دينية مثل مواضيعهم سددنا آذاننا وقلنا لا يعنينا . هذا ولعلمنا ان مناقشتنا مع اصحاب البشير تكون كالضرب في حديد بارد فنخسر اتعابنا سدًى لم نتعنَّ لمجاوبتهِ ولعلمنا ايضًا ان قراء جريدتنا لا ينقصون فهمًا وتمييزًا عن اصحاب البشير لم تتكلف الحاماة عن كتاباتنا التي اثبتوها وهم يتصدون لتخطئتها كما ترى في مسئلة بالسي وعرافة عين دور. غير اننا نعيد ما قلناهُ مرارًا وهو اننا غير معصومين في كتاباتنا فكل من تكرّم من الافاضل بتنبيهنا الى ما يرى فيها من الخلل نقبل تنبيههُ بالشكر والامتنان . ولو رأينا في كل ما كتبهُ البشير علينا شيئًا من مثل ذلك لتبلناهُ كذلك مهما كانت نيتهُ وغايتهُ . على اننا لم نرَ الاَّ كلامًا تابا النفوس الابيَّة كما قال حضرة صاحب النبذة المتقدمة

تنبيه . لا ننكر ان البشير اصلح لنا خطاء واحدًا في كل كتاباتهِ وهو ان دولاشابل (عن المقوت ٢٢ في عليهِ كما قال) لم يكن راهبًا كما ذكرنا بل كان كاهنًا ولكنهُ ربما عذرنا اذا علم ان لفظهُ بالفرنساوية (abbé) وتعريب هذه الكلمة في قاموس اليسوعيين الذي طبع سنة ١٨٦٧ رئيس الدير فقط